التحذير من سوء الخاتمة

وبيان أسبابها

كتبها
عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

رقم الإيداع : ١٦٤٢١ / ٩٨

مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم



القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين «ناصية شارع الجمهورية»
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله - تعالى - نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفُسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومَن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وليّ الصالحين وخالق الخلق أجمعين، وأشهد أن نبينا محمداً عبدُ الله ورسولُه - ﷺ - أرسله الله - تعالى - رحمةً للعالمين فشرحَ به الصدورَ وأنار به العقول، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فجزاه الله عنَّا أفضل ما جزى به نبياً عن أمته.

ورضي الله عن أصحابه الطاهرين، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿ يا أيُّها الذيـن آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاتـه ولا تَموتُنَّ إلا وأنتم مُسْلمُون﴾[١].

﴿يا أيُّهـا الناسُ اتقُـوا ربَّكُم الذى خلَـقكمْ من نفس واحدة وخلَقَ منـها زوجَهـا وبثَّ منهمـا رجالاً كثيـراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيباً﴾[٢].

﴿يا أيهـا الذين آمنوا اتقـوا الله وقـولوا قولاً سـديداً يصلحْ لكمْ أعمالَكم ويغـفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[٣].

أما بعدُ:

فإن نصـيب الإنسان من الدنيـا عُمره، فـإنْ أحسن استغلاله فيما ينفـعه في دار القرار فقد ربحت تجارتُه، وإن أساء استغلالَه في المعاصي والسيئات حتى لقي الله

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء، الآية الأولى.

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان (٧٠، ٧١).

على تلك الخاتمة السيئة فهو من الخاسرين، والعاقل من حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله، وخاف من ذنوبه قبل أن تكون سبباً في هلاكه. وتأتي هذه الرسالة الميسرة في التحـذير من سوء الخـاتمة وبيان مجـامع من أسبـابها، أسأل الله - تعالى - أن ينفع بهـا الجميع، إنه على كل شيء قدير. وهو فـي الحقيـقة موضـوعٌ مهمٌ في حـياة الأمة الإسلامية جمـعاء؛ ذلك لأن الأعمال بالخواتيم، والإنسان يموت علـى ما عاش عليـه، ويحشـر على ما مات عليه، وقد جاء في الحديث عن النبي - ﷺ - أنه قال: «منْ مات على شيء بَعَثَهُ الله عليه»[1].

فنسأل الله تعالى أن يحسن ختامنا، وأن يُهيِّئ لنا من أمـرنا رشـداً، وأن يصلح أحوالـنا، إنه سمـيع قـريب مجيب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني

(١) رواه الحاكم في مستدركه، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

ما المراد بسوء الخاتمة ؟

المراد - إخوتى الكرام - بسوء الخاتمة أن تغلبَ الوساوسُ الرديئة على العبد في حال مفارقته الدنيا بشك أو جحود، وتعلُّق بالحياة الدنيا فَيُخْتَمَ له بما يُوجِبُ له الخلودَ في نار جهنم، أو بما يُوجبُ له دخولَها فترةً إنْ لم يغفرْ له الله - جل وعلا -.

والخوف من سوء الخاتمة - أيها الإخوة - هو الذى طيَّش قلوبَ الصدِّيقين، وحَيَّرَ أفئدتهم في كل حين، ليس لهم في الدنيا راحة كلما دخلوا سكةً من سكك السكون أخرجهم الجزعُ إلى شارع من شوارع الخوف.

أروح بشجوٍ ثم أغدو بمثله
وتحسب أنى في الثياب صحيحُ

أحكم القومُ العلم، فحكم عليهم بالعمل، فقاطعوا التسويفَ الذى يقطع أعمارَ الأعمال، وانتبهوا فانتبهوا

الليل والنهار وأخرجوا قوى العزائم إلى الأفعال، فلما قضوا ديون الجد قضت عليهم بالحذر من الرد.

والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء سبحانه كما ثبت ذلك عن المصطفي- ﷺ -.

كم سمعنا عمن آمن ثم كفر، وكم رأينا من استقام ثم انحرف ولذلك كان كثيراً ما يردد عليه الصلاة والسلام في دعائه: **«يا مقلبَ القلوب ثَبِّتْ قلبى على دينك»**.

ولقد ارتد في زمن النبى - ﷺ - بعض من آمن ، فخرجوا من النور إلى الظلمات، منهم عبيد الله بنُ جحش الذى هاجر إلى الحبشة فارتد عن دينه ودخل في النصرانية - والعياذ بالله -.

وارتد بعد وفاته - عليه الصلاة والسلام - خلقٌ فقاتلهم أبو بكر الصديق - رضى الله عنه -.

وارتد كذلك خلقٌ في خلافة عمر - رضى الله عنه - منهم ربيعةُ بنُ أمية بن خلف، وكان في عداد الصحابة، حيث كان رجلاً شرَّابا للخمر فحده عمر - رضى الله عنه - ثم نفاه إلى خيبَر ففر هارباً إلى هرقل، فارتد عن دينه ودخل في النصرانية من أجل خمرةٍ(١) - نعوذ بالله تعالى من ذلك -.

يقول الإمام القرطبى - رحمه الله - في التذكرة:

[إذا كانت الهداية إلى الله مصروفةً والاستقامةُ على مشيئته موقوفةً، والعاقبةُ مغيبةً والإرادةُ غير مغالبةً فلا تعجبْ بإيمانك وعملكَ وصلاتكَ وصومكَ وجميع قُربِكَ فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدارِّ عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيرك، وربما سُلب عنك فعاد قلبُك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست

(١) انظر الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر، ٢ / ٥٣١، ط. دار الفكر، بيروت.

وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذْ هبّت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم، ذلك فعلُ العزيز الحكيم الخلاق العليم](١).

ولذلك خاف الأولياء أن يمكر بهم، فإنه سبحانه يمكر بمن يستحق المكر، قال ابن القيم-رحمه الله-:

[أما خوف أوليائه من مكره فحقٌّ، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيروا إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم، ورجاؤهم لرحمته، وقوله تعالى: ﴿أفأمنُوا مكْرَ الله﴾(٢) إنما هو في حق الفجار والكفار. ومعنى الآية: فلا يعصى ويأمنُ مقابلة الله له على مكر السيئات بمكْره أن يؤخرَ عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار، فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمورالآخرة، للقرطبي، ص ٣٨ ، ط. دار الفكر ، بيروت.

(٢) سورة الأعراف، الآية (٩٩).

على غرة وفترة[١].

وأمر آخر: وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره فيتخلى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة فيكون مكره بهم تخلّيَهُ عنهم.

وأمر آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعُيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم فيأتيهم المكر من حيثُ لا يشعرون.

وأمر آخر: أن يمتحنَهم ويبتليَهم بما لا صبر لهم عليه، فيفتنوا به وذلك مكر][٢].

❁ ❁ ❁

خوف السلف من سوء الخاتمة

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله :

وكان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم

(١) فترة: أي فجأة.

(٢) الفوائد لابن القيم - رحمه الله - ، ص ٢١٤ ، ط. دار النفائس.

من كـان يقلق من ذكـر السوابق. وقـد قـيل إنَّ قلوب الأبرار معلقةٌ بالخواتيم، يقولون: بماذا يُختَمُ لنا؟ وقلوبُ المقربين معلقةٌ بالسوابق، يقولون: ماذا سَبَقَ لنا؟!

قال سفيـانُ لبعض الصالحين: هل أبكاك قط علم الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركني لا أفرح أبداً. وكان سفـيانُ يشتـد قلقُهُ من السوابق والخـواتيم، فكان يبكى ويقول: أخـاف أن أكون في أم الكتـاب شقيـاً، ويبكى ويقول: أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت.

وكان مالكُ بنُ دينار يقوم طول ليله قابضاً على لحيته ويقول: يارب، قد علمتَ ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أى الدارين منزلُ مالك؟[1].

❁ ❁ ❁

من أقوال السلف عند الاحتضار

أخى المسلم:

وإذا تأملنا أقوال السلف الكرام عند الاحتـضار أخذنا

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٥٠، ط دار الفكر.

من ذلك العبرة والعظة، وإليك أمثلة على ذلك:

* لّما حضرت أبا هريرة- رضى الله عنه - الوفاةُ بكى، فقيل لـه: ما يبكيك؟ فقال: يبكينى بعـدُ المفازة، وقلةُ الزاد، وضعفُ اليقين، والعقبةُ الكؤودُ التى المهبط منها إما إلى الجنة وإما إلى النار.

* ولّما حَضَرَت معاويةَ بنَ أبى سفيانَ الوفاةُ قال: أقـعدوني، فـأقعـدوه، فـجعل يذكـر الله - تعالى - ويسبحه ويقـدسه. ثم قال مخاصمـاً نفسه: الآن تذكر ربك يا معاويةُ بعـد الانحطام والانهدام، ألا كان ذلك وغصنُ الشباب نضـيرٌ ريان، وبكى حتى علا بكاؤه ثم قال:

هو الموت لا منجى من الموت والذي
أحـــاذر منـه الموت أدهى وأفظع

ثم قـال: يا ربِّ ارحم الشـيخَ الـعـاصيَ ذا القلب القاسى، اللهم أقِل العثرةَ، واغفر الزلّةَ، وجُدْ بحلمك

على من لم يرجُ غيرَك ولا وثق بأحد سواك.

* ويروى أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - لمّا دنا منه الموتُ دعا بحراسه ورجاله فلمّا دخلوا عليه قال: هل تغنون عنى من الله شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فاذهبوا وتفرقوا عني، ثم دعا بماء فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم قال: احملونى إلى المسجد، ففعلوا.

فقال: اللهم إنك أمرتنى فعصيتُ وائتمنتنى فخنتُ وحددت لى فتعديتُ، اللهم لا بريءٌ فأعتذر، ولا قويٌ فأنتصر، بل مذنبٌ مستغفر، لامُصرٌّ ولا مستكبر[1].

* ولما نزل الموتُ بسليمانَ التيميّ قيل: أبشر فقد كنت مجتهداً في طاعة الله - **تعالى**-. فقال: لا تقولوا هكذا فإنى لا أدرى ما يبدو لى من الله - عز وجل - فإنه سبحانه يقول: ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾[2].

قال بعضهم: عملوا أعمالاً كانوا يظنون أنها حسناتٌ

(١) اغتنام الأوقات فى الباقيات الصالحات، للشيخ/ عبد العزيز السلمان ص ١٤٤.
(٢) سورة الزمر، الآية (٤٧).

فوجدوها سيئات.

ولما حضرت الوفاةُ الفضيل بنَ عياضٍ غُشى عليه ثم أفاق وقال: يا بُعْدَ سفرى وقلة زادي.

* ولما احتُضرَ عامرُ بنُ قيسٍ بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكَى لقوله تعالى: ﴿**إنما يتقبلُ الله من المتقين**﴾[١].

قال بعضهم: يوبخُ نفسَه ويعظها، يا نفس بادرى بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدى في حراسة ليالى الحياة وأيامها[٢].

فإذا كان هذا هو حال الصالحين الأبرار، فنحن أجدر بالخوف منهم، وإنما أمنًا لغلبة جهلنا وقسوة قلوبنا؛ ذلك لأن القلب الصافيَ تحركه أدنى مخافة، والقلب القاسى لا تنفعُ فيه كلُّ المواعظ. فنسأل الله - تعالى - قلباً خاشعاً وعيناً باكيةً ولساناً ذاكراً، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه.

---

(١)سورة المائدة، الآية (٢٧).

(٢) اغتنام الأوقات فى الباقيات الصالحات، ص ١٤٧.

أسباب سوء الخاتمة

سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكونُ لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمع بهذا ولا عُلم به والحمد لله، وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل أو إصرارٌ على الكبائر أو إقدامٌ على العظائم، فربما غلب عليه ذلك حتى ينزلَ به الموتُ قبل التوبة فيصطلمَهُ الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة - والعياذ بالله ثم العياذ بالله - أو يكون مستقيماً ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سنته ويأخذ في غير طريقه فيكون سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته(١).

وسوء الخاتمة على مرحلتين:

الأولى: أن يغلب على القلب - والعياذ بالله - شكٌّ أو جحود عند سكرات الموت وأهواله فيقتضى ذلك العذاب الدائم، وهذه أعظم.

---

(١) التذكرة فى أحوال الموتى وأمورالآخرة، ص ٣٧.

الثانية: أن يتسخط الأقـدار، أو يتكلم بالاعتراض، أو يجور فـي وصيتـه، أو يموت مُصـراً على ذنب من الذنوب، وهذه دون الأولى(١).

والأسـباب التـى تفضى إلى سـوء الخـاتمة لا يمكن انحـصارها على التـفـصيل، ولكن يمكنُ الإشـارة إلى مجامعَ منها بإيجاز:

أولا: الشك والجحود الذى تسببه البدعة:

ومعناها: أن يعتقد في ذات الله - تعالى - أو صفاته أو أفعـاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفـاسد، فإذا انكشف الغطاءُ عند الموت بان له بطلانُ مـا اعتقده فظن أن جميع ما اعتقده لا أصل له.

وكم خُتم لكثـير من البشـر بهذا عندما ابتـدعوا في دين الله - عز وجل - وزاغوا وانحرفوا عن صراط الله المستقيم، وظهرت حقـيقتُهم في أولِ لقاءٍ لهم مع ربٍّ العالمين سبحانه.

---

(١) تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان، لعادل بن عبد الله السعيدان، ص ٣٨.

هذا ابنُ الفارض عمرُ بنُ عليٍّ الحمويُّ (المتوفَّى سنة ٦٣٢هـ) والذى كان ينعقُ بالاتحاد، ويقول بحلول الله - جل وعلا - في مخلوقاته، وأن العبدَ ربٌّ والربَّ عبدٌ، عندما احتُضِرَ كما قال الأئمة الثقات الذين شاهدوه في حالة الاحتضار نَظَمَ بيتين من الشعر وهو في تلك الحالة يعبرُ فيها عن شقوته وعن هلاكه ويبكى ويقول:

إنْ كان منزلتى في الحبِّ عندكم
ما قد رأيتُ فقد ضيعتُ أيامي
أمنيةٌ ظفرت نفسى بها زمناً
واليوم أحسبها أضغاثَ أحلامي[1]

وقال ذلك عندما عاين سخط الله - جل وعلا - وكُشفَ له عن حقيقة أمره، وقَلَّ أن يُخْتَمَ لمبتدع في دين الله - تعالى - بالإيمان، ونسأل الله السلامةَ والعافية.

❁ ❁ ❁

(١) من محاضرة للشيخ / عبد الرحيم الطحان - حفظه الله - بعنوان : الخوف من سوء الخاتمة ، وانظر ترجمة ابن الفارض، في سير أعلام النبلاء، ٣٦٨/٢٢، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٥٤.

ثانيا: التسويف بالتوبة:

والتوبة إلى الله - عز وجل - من جميع الذنوب واجبة على كل مكلف كل لحظة، قال سبحانه: **﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾**[١].

وكان - ﷺ - وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يتوب إلى الله - تعالى - كل يوم مائة مرة كما قال عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة»[٢].

وإن من أنجح حيَل إبليس التي يحتال بها على الناس التسويفَ في التوبة، فيوسوسُ للعاصي بأن يتمهَّل في التوبة فإنَّ أمامَه زمناً طويلاً، ولو تاب الآن ثم رَجَعَ لا يمكنُ أن تُقبلَ توبتهُ بعد ذلك فيكون من أصحاب النار، أو يوسوس له بأنه إذا بلغ الخمسين أو الستين مثلاً فعليه أن يتوبَ توبةً نصوحاً ويلزم المسجد ويكثر القُرُبات،

---

(١) سورة النور، الآية (٣١)
(٢) رواه مسلم.

أمَّا الآن فـإنه في شبابه وزهرة عمـره فليمتع نفـسه ولا يشق عليها بالتزام الطاعات من الآن.

فهـذه بعض مكائد إبليس في التسويف بالتـوبة، قال بعضُ السلف الصالح: أنذركم «سوف» فإنها أكبرُ جنود إبليس، ومثَلُ المؤمن الحازم الذى يتوب إلى الله من كل ذنب وفي كل وقت خوفـاً من سوء الخاتمة ومحـبةً لله، والمفرط المسـوِّف الذى يؤخر توبته كـمثل قوم في سـفر دخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهبًا للرحيل.

أما المفـرط فإنه يقـول كلَّ يوم: سأتأهب غـداً حتى أعلن أميرُ القافلة الرحيل ولا زاد معه، وهذا مثلٌ للناس في الدنيا، فـإنَّ المؤمن الحازم متـى جاء الموتُ لم يندم، أمـا العاصى المفـرط فإنه يقـول: ربِّ ارجعـون، لعلى أعمل صالحاً فيما تركت(١).

❁ ❁ ❁

(١) انظر رسالة «حسن الخاتمة»، الشيخ / عبد الله بن محمد المطلق.

ثالثاً: طول الأمل:

وهو سبب شقاء كثير من الناس حين يخدعهم الشيطان فيصور لهم أن أمامهم عمرًا طويلاً، وسنينَ متعاقبةً، يبنون فيها آمالاً شامخةً فيجمعون همتهم لمواجهة هذه السنين ولبناء هذه الآمال ، وينسى الآخرة ولا يتذكر الموت، وإذا ذكره يوماً برم منه لأنه - في ظنه - ينغص عليه لذاته ويكدر عليه صفو عيشه.

كان عليٌّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - يشتد خوفُه من اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى ، يقول: [فأما طول الأمل فينسى الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق]، وكان يقول: [ألا وإن الدنيا قد ولَّتْ مدبرةً والآخرةُ قد أسرعت مقبلةً، ولكل واحدة منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإنَّ اليوم عملٌ ولا حساب وغدًا حسابٌ ولا عمل].

فإذا أحب الإنسانُ الدنيا أكثر من الآخرة آثرهَا عليها، واشتغل بزينتها وزخرفها وملذاتها عن بناء مسكنه في الآخرة، في جوار الله - تعالى - مع الذين

أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

ويظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى الأعمال الصالحة واغتنام أوقات العمر، فإن الأنفاس معدودة، والأيام مقدرة، وما فات لن يعود.

قال عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - : أخذ رسول الله - ﷺ - بمنكبى فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر - رضى الله عنهما - يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[1].

وقد أرشد رسول الله - ﷺ - المؤمنين إلى ما يبعد عنهم طول الأمل ويبصرهم بحقيقة الدنيا، فأمر بتذكر الموت، وبزيارة القبور، وبتغسيل الموتي، وتشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وزيارة الصالحين، فإن كلَّ هذه الأمور توقظ القلب من غفلته وتبصره بما سيقدم عليه فيستعد له ، ويحمل ذلك على الاجتهاد في العمل

(١) رواه البخاري .

الصالح ويبغض إليه الركـون إلى الشهوات المحرمة في الدنيا التي سيذهبُ عنها لا محالة[(١)].

❁ ❁ ❁

رابعًا: حب المعصية وإلفها واعتيادها:

فإذا ألفَ الإنسانُ المـعصية ولم يتبْ منها فـإن الشيطان يسـتولىَ عـلى تفكيره حـتى في اللحـظات الأخيـرة من حيـاته، فـإذا أراد أقرباؤه أن يلقنوه الشـهادة ليكون آخـر كلامـه «لا إله إلا الله» طغت هذه المعـصية على تـفكيره فتكلم بما يفيد انشغالـه بها، وخُتم له بالسوء - عياذًا بالله - تعالى - من ذلك.

أفلا يخـشى الذين يتركـون الصلاة تلو الـصلاة ثم يوعظون فلا يستجيـبون ألا يخشى هؤلاء أن يُختم لهم بالسوء. ألا يخشى الذين يتـعاملون بالربا ثم لا يتوبون ولا يذَّكَّرون أن يتـخطفهم الموت وهم عـلى هذا الجرم العظيم والذنب الكبير.

وأمَّا إذا تاب العـبد من المعـصيـة توبةً نصوحًـا فإنه

(١) راجع رسالة «حسن الخاتمة»، للشيخ / عبد الله بن محمد المطلق.

يرجى له الخير - بإذن الله - ولذلك قال علماؤنا: انكسارُ المذنب خير من صولة المطيع - أى من عجبه بنفسه وإجلاله لها -، وربَّ معصية أورثَتْكَ ذلاً وانكسارًا خيرٌ من طاعة أورثتك عزاً واستكبارًا.

جاء في ترجمة العبد الصالح أبانَ بن أبى عيَّاش - رحمه الله - أنه قال: خرجتُ من عند أنس بن مالك - رضى الله عنه - لَمَّا كان في البصرة بعد الظهر فرأيت جنازةً يحملها أربعةُ نفر فقط، فقلتُ: سبحان الله! رجلٌ مسلمٌ يموتُ ويمرُ بسوق البصرة لا يشهدُه إلاَّ أربعةُ نفر، والله لأشْهَدَنَّ هذه الجنازة. يقول: فحملتُ معهم ثم لما دفنا الرجل قلتُ لهم: ما شأنكم؟ قالوا: استأذنتنا تلك المرأة لدفن هذا الرجل، يقول: فذهبتُ إليها وقلت: يا أمة الله، ما شأنُ هذا الرجل؟ قالت: إنه ولدي، وكان مسرفًا على نفسه بعض الأحيان، فقال: يا أماه، إذا أنا متُّ فلقنينى كلمة التوحيد في حال الاحتضار فإذا قلتها وقضيتُ حياتى فضعى قدمك على خدى وقولى هذا جزاء من عصى الله، ولا تخبرى أحدًا بموتي، فهم يعلمون عصيانى ولن يشهدوا جنازتي، ثم

إذا دفنت فارفعي يديك إلى الله وقولي: يا ربِّ، إني راضية عن ولدى فارض عنه. فلما سألها أبان بن أبى عياش عن هذا ضحكت فقال: ما الذى يضحكك يا أمة الله؟ قالت: والله إني رفعتُ يدى إلى الله بعد أن دُفن ابنى وقلت: يا ربِّ، إني راضية عنه فارض عنه. وفعلتُ ما أوصانى به، فسمعتُه يناديني: يا أماه، قدمتُ على ربّ رحيم كريم غير غضبان عليّ ولا ساخط(١).

فإذا كان في النفس انكسار وخضوع وتذلل للواحد القهار فسوف يظهر ذلك عند الاحتضار، وإن كان فيها غير ذلك فنعوذ بالله - تعالى - من سخطه وغضبه.

* * *

خامسًا: الانتحار:

فإذا أصاب المسلم مصيبةٌ فصبر واحتسب كانت له أجرًا، وإن جزع وتضايق من الحياة ورأى أن أحسن طريق له يتخلص به من هذه الأمراض والمشاكل هو

---

(١) من محاضرة للشيخ/ عبد الرحيم الطحان، بعنوان «الخوف من سوء الخاتمة»، وانظر ترجمة أبان بن أبي عياش في تهذيب التهذيب لابن حجر ١ / ٩٧، وميزان الاعتدال للذهبي ١/ ١٠.

الانتحار فقد اختار المعصية وأسرع إلى غضب الله - تعالى - وقتل نفسه بدون حق.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعنها في النار**»(١).

وعن سهل بن سعد الساعديِّ - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله - ﷺ - إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم ، وفي أصحاب رسول الله - ﷺ - رجلٌ لا يدعُ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلا اتبعها يضربها بسيفه. فقيل: ما أجزأ منا اليومَ أحدٌ كما أجزأ فلان. فقال رسول الله - ﷺ -: «**أما إنه من أهل النار**».

فقالَ رجلٌ من القوم: أنا صاحبُه. قال: فخرج معه كلما وَقَفَ وقف معه، وإذا أسرع أسْرَعَ معه. قال: فجُرِحَ الرجُلُ جرحًا شديدًا فاستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابَهُ بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه، فخرج الرجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: أشهد إنك

(١) رواه البخاري.

رسول الله، قال : ومـا ذاك؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفًا أنه من أهل النار، فـأعظم الناس ذلك. فقلت: أنا لكم به، فخـرجت في طلبه، ثم جُـرح جرحًـا شديدًا فاستـعجل الموت فوضع نصل سيـفه في الأرض وذُبابَه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله - ﷺ - عند ذلك: «إن الرجل ليـعمل عـمل أهل الجنة فيما يبـدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[1].

❁ ❁ ❁

سادسـًا: النفـاق:

وهو اختلاف السريرة والعلانية، أى اختلاف الظاهر مع الباطن واختلاف القول مع العمل.

فإذا ظهر الـتبايُنُ والاختلاف فـالإنسان منافق، وإذا كـان الإنســانُ من المنافـقين المـرائين المخـادعين فكيف سيلقى الله - عز وجل - في حـال الاحتـضار، وفي شدة الموت وسكراته، والذى هـو أعظم كرب يمرّ على الإنسان منذ أن خلقه الله - عز وجل -.

(١) رواه البخارى ومسلم.

قال أحد السلف: إذا استوى ظاهر المسلم وباطنه فهذا هو الإنصاف والعدل، وإذا كان الباطنُ خيرًا من الظاهر فهذا هو الفَضْل، وإذا كان الظاهر خيرًا من الباطن فهذا هو الجور.

وكان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يسأل صاحبَ سرِّ النبى - ﷺ - في الفتن والمنافقين حذيفة بنَ اليمانَ - رضى الله عنه - فيقول: أسألك بالله هل سمانى رسول الله - ﷺ - من المنافقين؟ فيقول حذيفة: لا، ولا أؤمِّنُ أحدًا بعدك.

وفي مسند البزَّار بسند صحيح عن عبد الرحمن ابنِ عوف - رضى الله عنه - أنه دخل على أم المؤمنين أمِّ سلمة - رضى الله عنها - فقال: إنى أكثر قريشٍ مالاً، وإنى أخشى أن يهلكنى مالي، فقالت: تَصَدَّقْ فإنى سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «**إنَّ من أصحابى مَنْ لا يرانى بعد أنْ أفارقَه**» فخرج عبد الرحمن - وهو متقطعٌ قلبُه من الخوف - فالتقى بعمرَ - رضى الله عنه

- وأخبــره بالأثر فدخل على أم سلمــةَ فقــال: أسألك بالله: هل أنا منهــم؟ فــقــالت: لا، ولا أبرىء أحــدًا بعدَك.

أخى المسلم: هذه مجــامع من أسباب ســوء الخاتمة، وإننى لأحذِّر نفسى وإياك أن يكــون فينا سبب من هذه الأســبــاب، فأعــد مــا يصلح لهــا وإياك والتســويف بالاستعداد، فإن العُمــر قصير، وكُلُّ نفس من أنفاسك بمنزلة خــاتمتك، لأنــه يمكن أن تُخطَفَ فــيــه روحُك، والإنسان يموت علــى ما عاش عليــه، ويحشــر على ما مات عليه. وسيأتى - بإذن الله - ذكرٌ لبعض الحوادث الدالَّة على ســوء الخاتمة لعلِ الــنفس تعتــبر بحــال من مضيَ من مــصارعِ القوم فإنَّ في ذلك عبــرةً لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الحاكم في مستدركه، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

(١) التذكرة في أحوال الموتي وأمورالآخرة، للقرطبي، ص ٣٨ ، ط. دار الفكر ، بيروت

أمثلة من علامات سوء الخاتمة

العلامات الدالة على سوء الخاتمة كثيرة، فبعضهم يظهر عليه ذلك عند اشتداد المرض فيقع في التسخط والاعتراض على قضاء الله - عياذاً بالله تعالى من ذلك -.

ومنهم من يتلفظ عند احتضاره بكلام يغضب المولى - عز وجل - أو يحال بينه وبين كلمة التوحيد.

وبعضهم ربما ظهر عليه ذلك عند تغسيله كالتغير في اللون ونحو ذلك، ومنهم من تظهر عليه عند إنزاله في قبره، والبعض الآخر بعد دفنه في قبره.

وسأذكر فيما يلي بعض الحوادث الدالة على سوء الخاتمة لعل في ذلك العبرة والعظة.

* قال الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -: [قال عبد العزيز بنُ أبي روَّاد: حضرْتُ رجلاً عند الموت يلقن الشهادة: لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك. قال فسألتُ عنه

فإذا هو مدمنُ خمر. وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته][1].

* ومنذُ سنوات جَرَتْ حادثةٌ في القصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلُها أنَّ رجلاً في حال احتضاره ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلي معه في المسجد - والله أعلم بما في القلوب - وقال: يا عبد الله، هذا المصحفُ الذى كنت تقرأ فيه، فاتق الله في نفسك، ولقنه كلمة التوحيد، فقال: هو كافر بالمصحف، وبـ لا إله إلا الله، وخُتم له على ذلك الحال[2]، فنعوذُ بالله - تعالى - من الخذلان.

* قال ابنُ أبى الدنيا - رحمه الله -: [حدثنى أبو الحسن بن أحمد الفقيه قال: نَزَلَ الموتُ برجل كان عندنا فقيل له: استغفر الله، فقال: ما أُريد، فقيل له:

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٥٠، وانظر ترجمة عبد العزيز بن أبي روَّاد في تهذيب التهذيب، ٦/٣٣٨، وسير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٤، وطبقات ابن سعد ٥/ ٤٩٣.

(٢) من محاضرة للشيخ/ عبد الرحيم الطحان وسبق الإشارة إليها.

قل لا إلهَ إلاَّ الله، فـقالَ: مـا أقول لجـهد جهـده، ثم مات.

وسمعت أن رجلاً كان كثير الصوم والتعبد، اشتد به الألم فـافتتن، فـسمـعتـه يقول: لقـد قلبني في أنواع البلاء، فلو أعطاني الفـردوس ما وفّى بما يجرى عَلَيّ، ثم صار يقول: وأي شيء في هذا الابتلاء من المعنى إن كان موتًا فيجوز، فأمّـا هذا التعذيب فأيُّ شيءٍ المقصود به][1].

هذا مما جاء من الحوادث الدالة على سوء الخاتمة حال الاحتضار.

أما ما ظهر عند التغسيل فكثيرٌ جداً:

* يقول الشـيخُ القحطاني في محـاضرةٍ له: [إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم كان بعضهم تنقلبُ بشرتُه إلى السـواد، وبعضـهم يقبض يده اليـمنى، وبعضـهم يدخل يدَه في فـرجـه، وبعضـهم تشمٍ رائحـة الشـواء تخرج من فرجه، وبعضهم تـسمعُ كأنَّ أصياخًا من نارٍ أُدخلتْ في فرجه.

يقول: ولقد جيء بميت فلما ابتدأنا بتغسيله انقلب لونهُ كأنه فحمةٌ سوداء، وكان قبل ذلك أبيض البشرة. فخرجتُ من مكان التغسيل وأنا خائف، فوجدت رجلا واقفًا فقلت له: هذا الميت لكمْ؟ قَالَ: نعم. قلتُ: أنت أبوه؟ قال: نعم. قلتُ: ما شأن هذا الرجل؟ قال: هذا الرجلُ كان لا يصلي. فقلتُ له: خُذْ ميتك فغسِّلْه(١).

وأمّا ما ظهر عند الإنزال إلى القبر فمنه:

○ قال الشيخ القحطاني: خرجت ذات يوم من المقبرة بعد صلاة العصر، وكنا قد قبرنا رجلاً، وكان الطين عالقًا في يدى فأردت أن أغسلها إذا جاءت جنازة فقال أحدهم وكانوا في حدود الخمسين رجلاً: بالله عليك أن تساعدنا في قبر هذا الرجل فوالله لا نحسن القبر. فَسَلَلْتُ الرجلَ من جهة الرجلين وكان ثقيلاً فأعانني عليه بعضُهم فوضعته في القبر وطلبتُ لبنة أضعها تحت

---

(١) تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان، ص ٤٧.

رأسـه . وقـد حللت الأربطة، فـنظرت فـإذا برأس هذا الميت قد تحول - عياذًا بالله - من القبلة هكذا - فحوَّل الشيخ رأسَـه - فـقـمتُ برد هذا المـيت إلى القـبلة، وأخذت اللبنة الثانية ولكـنى في هذه المرة وجدتُ عينيه قد فـتحتـا وأنفه وفـمه يصبـان الدم الأحمـر القاني، فداخلنى الخوف والوجل حـتى إن رِجْليَّ لم تستطعا أن تحملانى داخل القبـر، وقد رأى معى اثنان أو ثلاثةٌ هذا المشـهـدَ الغـريبَ الخطيـر، ثم أعطونـى اللبنةَ الثـالثـةَ فوجـدتُ أنه تحوَّل في المرة الثالثـة فتركـته وهربت من القبر نهائيًا، فقـام الذين كانوا معى وتولوا عملية الدفن فردموه بالتراب، ولم يغلقوا اللحدَ من شدة الخوف، ثم صـرتُ أرى هذا الميت في المنام سـبعَ أو ثمانى مَـرات حتى سكَّن الله قلبى عندمـا ذهبت إلى العمرة وجلستُ هناك في حدود خمـسة عشر يومًا حـتى نسيت وعدتُ إلى الرياض(١).

○ وقال القـرطبى - رحمه الله - في التذكـرة: [ولقد أخبرنى صاحبنا أبو عبد الله مـحمد بن أحمد القصرى

(١) تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان، ص ٤٨ - ٤٩.

- رحمه الله - أنه تُوفي بعضُ الولاة بقسطنطينة فحُفر له، فلما فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميتَ القبرَ إذا بحية سوداء داخل القبر، فهابوا أن يدخلوه فيه، فلم يزالوا يحفرون له نحواً من ثلاثين قبراً، وإذا بتلك الحية تتعرض لهم في القبر الذى يريدون أن يدفنوه فيه، فلما أعياهم ذلك سألوا: ما يصنعون؟ فقيل لهم: ادفنوه معها. نسأل الله السلامة والستر في الدنيا والآخرة][(١)].

أمَّا ما ظهر من علامات بعد الدفن فمن ذلك:

○ قال ابنُ القيم - رحمه الله - في كتابه «الروح»: [وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمدُ بنُ الرزيز الحرانى أنه خَرَجَ من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال: فلما كان قبل غروب الشمس توسطتُ القبورَ فإذا بقبر منها وهو جمرةُ نار مثلُ كوز الزجاج، والميت في وسطه فجعلتُ أمسح عينى وأقول: أنائم أنا أم يقظان؟ ثم

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٧٤.

التـفتُ إلى سـور المدينة وقـلتُ: والله مـا أنا بنائم ثم ذهبتُ إلى أهلي وأنا مدهوش فأتوني بطعام فلم أستطع أنْ آكلَ ثم دخلت البلد فسـألت عن صاحب القبـر فإذا به مَكَّاسٌ(١) قد تُوفي ذلك اليوم(٢).

نعوذ بالله من سوء الختام، ونسأله سبحانه أن لا يزيغ قلوبنا بعـد إذ هدانا، وأن يهَب لنا من لدنه رحـمةً إنه هو الوهاب.

❁ ❁ ❁

أمثلة من الواقع المعاصر على سوء الخاتمة

١- هذه قصـة مؤلمة ذكرها الشيخ أحـمد القطان في محاضرة له:

يقول الراوى الذى نقل عنه الشيخ:

صحبنا على ظهر سفـينة نجول بها حول البلدان طلبًا

(١) المكّاس: صيغـة مبالغةٍ على وزن فـعَّال، وهو الذي يجبي ما لا يسـتحق من الضرائب الجائرة.

(٢) الروح ص ١١٩، ط. دار الكتاب العربي، بيروت.

للرزق شاب صالح، نقي السريرة، طيب الخلق، كنا نرى التقى يلوح في قسمات وجهه، والنور والبشر يرتسمان على محياه، لا تراه إلا متوضئًا مصليًا، أو ناصحًا مرشدًا، إن حانت الصلاة أذن لنا وصلى بنا، فإن تخلف أحد عنها أو تأخر عاتبه وأرشده، وكان معنا على هذه السجية طيلة أسفارنا.

وألقى بنا البحر إلى جزيرة من جزر الهند فنزلنا إليها وكان مما تعود عليه البحارة أن يستقروا أيامًا يرتاحون فيها، ويستجمون بعد عناء السفر الطويل، يتجولون في أسواق المدينة ليشتروا أغرب ما يجدون فيها لأهلهم وأبنائهم ثم يرجعون إلى السفينة في الليل، وكان منهم نفر ممن وقع في الضلال، يتيمم أماكن اللهو والهوى ومحال الفجور والبغاء، وكان ذلك الشاب الصالح لا ينزل من السفينة أبدًا، بل يقضي هذه الأيام يصلح في السفينة ما احتاج منها إلى إصلاح، فيفتل الحبال ويلفها، ويقدم الأخشاب ويشدها، ويشتغل بالذكر والقراءة والصلاة وقته ذاك.

قال الـراوى : وعينه ترقـرق بالدموع وتنحـدر على لحيته: وفي إحدى السفـرات وبينما كان الشاب منشغلاً بأعماله تلك إذا بصاحب له في السـفينة ممن أتبع نفسه هواها وانشـغل بطالح الأمـور عن صالحـها، وبسـافل الأخلاق عن عاليها يهامسه ويقول:

صاحبي، لمَ أنت جالس في السـفينة لا تفارقها؟ لِمَ لا تنزل حتى ترى دنيا غير دنياك؟ ترى ما يشرح الخاطر ويؤنس النفس! أنا لم أقل لك تعـال إلى أمكان البـغاء وسخط الله، ولا إلى البارات وغـضب الله، هيهات يا صاحبي، لكـن تعال فانظر إلى مُلاعِب الثـعابين كيف يتلاعب بها ولا يخافها، وإلى راكبِ الفيل كيف يجعل من خـرطومه له سلمًـا ثم يصعـد برجليه ويديه حـتى يقيـمه على رجل واحـدة، وآه لو رأيت من يمشى على المساميـر أنّى له الصبر، ومن يلقم الجمـر كأنما هو تمر، ومن يشرب ماء البحر فيسيغه كما يسيغ الماء الفرات، يا أخى أنزل وانظر الناس! فتحركت نفس الشاب شوقًا لما سمع، فقال:

وهل في هذه الدنيا ما تقول؟

قال صاحب السوء: نعم، وفي هذه الجزيرة. فانزل، تَرَ ما يسرك، ونزل الشاب الصالح مع صاحبه، وتجولا في أسـواق المدينة وشوارعـها حـتى دخل به إلى طرق صغـيرة ضيقـة، فانتهى بهـما الطريق إلى بيت صغـير فدخل الرجل البيت وطلب من الشاب أن ينتظره وقال: سآتيك بعد قليل ولكن! إياك إياك أن تقترب من الدار. جلس الشـاب بعـيـدًا عن البـاب يقطّع الوقت قـراءة وذكرًا. وفجأة! إذا به يسمع قهقـهة عالية، ليُفتح الباب وتخرج منه امرأة قد خلعت جلباب الحياء والمروءة.

أوّاه!! إنه البـاب نفـسـه الـذى دخل فـيـه الرجل. وتحركت نفس الشاب فدنا من البـاب ويصيخ سمعه لما يدور في البيت وإذا به يسمع صـيحة أخرى، فنظر من شق الباب ويتـبع النظرة أختـها لتتـواصل النظرات منه وتتوالى وهو يرى شـيئًا لم يألفـه ولم يره من قبل، ثم رجع إلى مكانـه ولما خـرج صـاحـبــه بادره الشـاب مسـتنكرًا: ما هذا؟! ويحك! هذا أمـر يغضب الله ولا يرضيـه، فقال الرجل: اسكت يا أعمى يامـغفل، هذا

أمر لا يعنيك.

قال الراوي: ورجـعا إلى السفيـنة في ساعة متـأخرة من الليل، وبقى الشاب ساهرًا ليلته تلك مشتغل الفكر فـيمـا رآه، قـد اسـتحكم سـهم الشـيطان من قلبـه، وامتلكت النظرة زمام فؤاده، فما إن بزغ الفجر وأصبح الصباح حتى كـان أول نازل من السفينة وما في باله إلا أن ينظر فقط، ولا شيء غير أن ينظر، وذهب إلى ذلك المكان، فما إن نظر نظرته الأولى وأتبعـها الثانية، حتى فـتح الباب وقـضى اليوم كـله هناك واليوم الذى بعـده كذلك فافتقده ربان السفينة وسأل عنه:

أين المؤذن؟ أين إمامنا في الصـلاة؟ أين ذلك الشاب الصالح، فلم يجبه من البحارة أحد، فأمرهم أن يتفرقوا للبـحث عنه فـوصل إلى علم الـربان من ذهب به إلى ذلك المكان فأحضره وزجره وقال له:

ألا تتـقى الله ألا تـخـشى عـقـابـه، عـجل اذهب فأحـضره، فذهب إليـه مرة بعد مـرة لكن دون جدوى فلم يسـتطع إحـضاره لأنه كـان يرفض ويأبى الرجـوع

معهـم، فلم يكن من قائد السفينة إلا أن أمـر عدة من الرجال أن يحضروه قسرًا، فسحبوه بالقوة وحملوه إلى السفينة.

قـال الراوي: وأبحرت السـفينة راجـعة إلى البـلاد ومـضى البحـارة إلى أعمـالهم وأخذ ذلك الشـاب في زاوية من السفـينة يبكي ويئن حتى لتكاد نيـاط قلبه أن تتقطع من شدة البكاء، ويقـدمون له الطعام ولا يأكل، وبقى على حاله البائسـة هذه بضعة أيام، وفي ليلة من الليالـي ازداد بكاؤه ونحيبـه ولم يستطع أحـد من أهل السفينة أن ينام فجاءه ربان السفينة وقال له:

يا هذا اتق الله مـاذا أصابـك لقد أقلقنـا أنينك فمـا نستطع أن ننام. ويحك مـا الذي بدل حالك؟ ويلك ما الذى دهاك؟ فرد عليه الشاب وهو يتحسر: دعنى فإنك لا تدرى مـا الذي أصـابني؟ فقـال الربان: ومـا الذي أصابك؟ عند ذلك كشـف الشاب عن عورته وإذا الدود يتسـاقط من سوأته، فـانزعج ربان السفـينة وارتعش لما رأى وقال: أعوذ بالله من هذا، وقـام عنه الربان وقبيل

الفجر قام أهل السفينة على صيحة مدوية أيقظتهم وذهبوا إلى مصدرها فوجدوا ذلك الشاب قد مات وهو ممسك خشبة السفينة بأسنانه، استرجع القوم وسألوا الله حسن الختام وبقيت قصة هذا الشاب عبرة لمن يعتبر[1].ا. هـ.

٢- وها هو شاب - كان من العابثين - يُحكى عنه أنه حصل له حادث مروِّع في طريق مكة إلى جدة. قال الراوى الذى حضر المشهد: فلما رأينا منظر السيارة ومشهدها الخارجي، قلت أنا ومن معى من الإخوة: ننزل، فننظر ما حال هذا الإنسان، وكيف أصبح، فلما اقتربنا من الرجل وجدناه في النزع الأخير من حياته، ووجدنا مسجل السيارة مفتوحًا على أغان غربيّة باطلة، يقول: فأغلقنا المسجل، ثم نظرنا إلى الرَّجل وما يعانيه من سكرات الموت، فقلنا: هذه فرصة لعل الله - عز وجل - أن يجعل علي أيد ينا فلاح هذا الرجل في دنياه

(١) من درس للشيخ أحمد القطان، وهي في أول كُتيِّب السهم المسموم.

وآخرته فأخذنا نقول له يا هذا، قل : لا إله إلا الله.

أتدري- أخي -بماذا تكلم في آخر رمق من حياته؟!!

ليته ما نطق، لقد قال كلمة رهيبة عظيمة!

لقد قال - عياذًا بالله تعالى من ذلك - قال بكلمته العامية: [يلعن دينك ودين دينك، ما بدّى أصلى ولا بدى أصوم] ثم مات على هذه الحال(١)، نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

٣- قال أحد الفضلاء:

كنا في رحلة دعوية إلى الأردن، وفي ذات يوم وقد صلينا الجمعة في أحد مساجد مدينة الزرقاء، وكان معنا بعض طلبة العلم، وعالم من الكويت، وبينما نحن جلوس في المسجد وقد انصرف الناس، إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعي، وهم يصيحون: أين الشيخ؟!! أين الشيخ؟!!

(١) سمعتها من أحد الدعاة.

وجاؤوا إلى الشيخ الكويتي، فقال له: يا شيخ، عندنا شاب توفي صباح هذا اليوم عن طريق حادث مروري، وإننا عندما حفرنا قبره ووضعناه فيه إذا بنا نفاجأ بوجود ثعبانٍ عظيم في القبر، ونحن الآن لم نضع الشاب، وما ندري كيف نتصرف؟

يقول الراوي:

فقام الشيخ وقمنا معه، وذهبنا إلى المقبرة، ونظرنا في القبر فوجدنا فيه ثعباناً عظيمًا قد التوى، رأسه من الداخل وذنبه من الخارج، وعينه بارزة، يطالع الناس.

يقول الراوي:

فقال الشيخ:

دعوه، واحفروا له مكانًا آخر، يقول: فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتي متر تقريبًا، فحفرناه وبينما نحن في نهايته إذا بالثعبان يخرج، فقال الشيخ: انظروا القبر الأول، فذهبنا إلى الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ: لو حفرنا ثالثًا ورابعًا سيخرج الثعبان،

فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه.

يقول الراوي:

فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا، وخرج من القبر، وجلس على شَفيره، والناس كلهم ينظرون إليه، وأصاب الناس ذعر وخوف، حتى إن بعضهم حصل له إغماء، فحملته سيارة الإسعاف.

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى المهن.

يقول الراوي:

وبينما جيء بالجنازة، وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار، ثم دخل من أسفل القبر، فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت، بدأ من رجليه حتى وَصَلَ رأسه ثم اشتد عليه فحطّمه، يقول الراوي: إنا كنا نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكراث.

يقول الراوي:

ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر في

القبر، وإذا الحال كما هى عليه من تلوى ذلك الشعبان على الميت، وما استطعنا أن نفعل شيئًا. وقال الشيخ: اردموه، فدفناه، ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه الشاب؟ فقال: إنه كان طيبًا مطيعًا إلا أنه كان لا يصلي[1]!! نعوذ بالله تعالى من سوء الختام.

أخى في الله:

إنَّ هذه الحادثة المفجعة عبرة وعظة لأولئك المضيِّعين للصلوات أن يتوبوا إلى الله - تعالى - من هذا العمل الشنيع قبل أن تتخطفهم يد المنون وقبل أن تقول نفس: **﴿يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾**

وتكون الإجابة الشافية الكافية:

﴿بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت

(١) سمعتها من الشيخ سعيد بن مسفر - ثبتنا الله وإياه -.

وكنت من الكافرين﴾[1].

٤- قال الراوي:

حدثني أحدهم قال:

كنت مسافرًا في دراسة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكان شأني شأن كثير من الشباب الذين يقضون الليل في الملهى والمرقص، وذات يوم كنا آيبين من لهونا وعبثنا، وتقدم بعضنا إلى الإسكان، أما واحد منا فقد استبطأناه وقلنا: لعله يأتي بعد سويعة، ولم نزل ننتظره لكنه لم يأت، فنزلنا نبحث عنه يمينًا وشمالاً، ثم قلنا أخيرًا: لابد أنه في الموقف الذى يجعل للسيارة تحت البناء، فدخلنا الموقف فوجدنا أن محرك السيارة لا زال مشتغلاً وصاحبنا ساكن لا يتحرك، والموسيقى لا زالت تَرِنُّ منذ آخر الليل حتى اللحظة التى فتحنا فيها باب السيارة. فتحنا الباب، ونادينا: يا أخانا، يا صاحبنا، فإذا به قد انقطع عن الدنيا منذ اللحظة التى وقفت فيها سيارته في ذلك

(١) الزمر، الآيات (٥٦ - ٥٩).

الموقف[1]، وكانت هذه النهاية المحزنة لذلك الشاب قد أشعلت في قلوب الكثير من أولئك الشباب يقظة وتوبة وإنابة إلى الله - تعالى -، فعادوا إلى الله تائبين وما شربوا بعدها وما فجروا، بل استكانوا وأنابوا بفضل الله ثم بتدبرهم لحال صاحبهم الذى مات على معصية الله، وكانت نهايتُه موعظةً لمن يريد الاتعاظ، وأما المفرط المضيع فهو بمعزل عن ذلك.

٥- وها هو شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى «بانكوك» للفسق والدعارة، بينما كان في سكره وغيه ينتظر خليلته - وقد تأخرت عليه - فما هى إلا لحظات حتى أقبلت عليه، فلما رآها خرَّ ساجدًا لها تعظيمًا، ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة[2]، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة.

٦- وها هم أربعة من الشباب، كانوا يعملون في

---

(١) سمعتها من الشيخ سعد البريك - بارك الله فيه -.

(٢) المصدر السابق.

دائرة واحـدة، مـضت عليـهم سنين وهم يجـمـعـون رواتبهم ، فإذا سمعوا ببلد يـفعل الفجور طاروا إليها، وبينمـا هم في ذات يوم جالـسين إذ سمـعوا ببـلاد لم يذهبوا إليـها، وعقدوا العـزم أن يجمعـوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التي حدّدوها. وجاء وقت الرحلة وركبـوا طيارتهم ومـضوا إلى مـا يريدون، ومَرَّ عليـهم أكثـر من أسبـوع في تلك البـلاد وهم بين زنا وخمور، وفعـال لا ترضى الرحمن، بينما هم في ليلة من الليالي، وفي ساعة متأخرة من الليل، يجاهرون الله تعالى بالمعصية والفجـور، نعم بينما هم في غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعـة يسقط مغشيًا عليـه ، فيهرع إليه أصـحابه الثلاثة فـيقول له أحـدهم في تلك الليلة الحمـراء، يقول له: يا أخي، قل لا إله إلا الله، فـيرد الشاب - عياذاً بالله -: إليـكَ عني، زدني كأس الخمر وتعالى يـا فلانة، ثم فاضت روحـه إلى الله وهو على تلك الحـالة السـيئـة، نسـأل الله - تعالـى - السلامـة والعافية.

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا يبكون، وخرجوا من المرقص تائبين، وجهزوا صاحبهم، وعادوا به إلى بلاده محمولاً في تابوت، ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد[١] - عياذاً بالله-.

فاحذر - أخي - أن تكون خاتمتك على العصيان، واستعد لما أمامك من الأهوال، واعمل لدار طالما بكى لأجلها الصالحون، وشمّر لها المتقون لتكون من الذين قال الله - تعالى - فيهم: **﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾**[٢].

٧- وها هو أحد الفضلاء يقول: حدثني أحد الذين يُدرِّسون في معهد من المعاهد العلمية في بلادنا يقول:

أقسم بالله ثلاثاً وليس لي حاجة أن أكذب إنني كنت مريضًا في أحد المستشفيات، فأُتي بمريض بجانبي في

(١) سمعتها من أحد الدعاة.

(٢) سورة آل عمران، آية (١٠٧).

الغرفة التى كنت مطروحًا فيها على السرير.

يقول: وكان ذلك المريض أصفر اللون، فإذا به في اليوم التالى ينقلب لونه إلى الحنطي، وفي اليوم الثالث يكون لونه كأمثالنا.

يقول: فقلت: لعله قد بدأ يتحسن.

ولكن للأسف جاء اليوم الرابع فإذا بلونه ينقلب إلى الأسود، وفي اليوم الخامس يشتد سواده أكثر فأكثر!!

يقول: فارتعدنا وخفنا من هذا الرجل. وقد كنتُ أعرفه قبل ذلك، كان ممن يتخلف عن الصلوات، كان ممن يسافر خارج البلاد، ويتعامل بالمخدرات ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اقتربتُ منه وبدأت أقرأ عليه القرآن، فإذا به تخرج منه روائح كريهة منتنة - عياذاً بالله - يقول: ولما بدأت أقرأ عليه القرآن شهق شهقة عظيمة، فخفت وابتعدت، فقال لى مريض آخر: واصل القراءة، فقلت: والله لن أقرأ عليه. قال: اذهب إلى فلان في الغرفة المجاورة، وناده ليقرأ عليه، فجاء هذا الشاب الآخر وبدأ يقرأ

عليه. يقول: فشهق شهقة أخرى عظيمة، وما زال يواصل القراءة عليه حتى شهق للمرة الثالثة شهقة مخيفة، ثم طلبوا الطبيب، فجاء، ووضع السماعة على صدره، ثم قال: لقد مات[١].

نعم، لقد مات وفارق الحياة، وكانت له هذه الخاتمة السيئة، لأنه كان مسيئًا في جنب الله، غير مراعٍ لحدوده، ومن كان على هذه الحال من الضياع والفساد فحقه أن يختم له بذلك جزاء وِفَاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

وصدق الله:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[٢].

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) سمعتها من الشيخ محمد المحيسني أثابه الله.

(٢) سورة يوسف، آية (١١١).

خـــاتمــة

هذا وفي ختام هذه الرسالة الميسرة يحسن بي أن أورد لإخواني بعض الوسائل التي جعلها الله - عز وجل - سببًا في حسن الخاتمة وهي بإيجاز.

أ- تقوى الله - تعالى - في السر والعلانية، والتمسكُ بالقرآن، وبما جاء به النبيُّ - ﷺ - فهما سبيل النجاة، وأن يحذر العبدُ من الذنوب أشد الحذر، فإنَّ الكبائر موبقاتٌ، وكثرة الصغائر مع عدم التوبة والاستغفار رانٌ على القلب. قال عليه الصلاة والسلام: **«إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإنَّ محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»**[١].

ب- المداومة على ذكر الله - تعالى - وشكره، فمن

(١) رواه الإمام أحمد في مسـ

داوم على ذكر الله وختَمَ به جميع أعماله، وكان آخر ما يقول من الدنيا: لا إلهَ إلاَّ الله نال بشارة النبي - ﷺ - عندما قال: «مَنْ كان آخرَ كلامِهِ لا إله إلا الله دخل الجنة»(١).

ثم ليعلم المسلمُ أن الدنيا دار ممر، وليست دار مقر، فإذا عَلِمَ ذلك جعل الدنيا في يده لا في قلبه. وليكثرْ من قول: يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك، كما جاء ذلك عن الرسول - ﷺ - أنه كان يكثر أن يقولَ في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقيل له: يا نبي الله آمنَّا بك وبما جئتَ به فهل تخاف علينا؟ فقال: نعم، إنَّ القلوبَ بين أُصبعين من أصابع الرحمن - عز وجل - يقلبها كيف يشاء»(٢).

اللهم إنَّا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تختم لنا بما يرضيك عنا، اللهم واجعلْ خير أعمالنا خواتيمَها، وخيرَ ساعاتنا ساعةَ لقائك وأنت راضٍ عنا غير غضبان، اللهم ثبتنا بقولك الثابت في الحياة الدنيا

(١) رواه أبو داود والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) خرَّجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أنس - رضي الله عنه -.

وفي الآخرة، ولا تزغْ قلوبَنا بعدَ إذ هديتنا وهَبْ لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب.

اللهم واجعل سرَّنا خيرًا من علانيتنا، واجعل علانيتَنا صالحةً، إنك على كل شيء قدير. وصلِّ اللهم وسلم على عبدك ونبيك محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

سبحانَكَ اللهم وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إلهَ إلا أنت، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك.

* * *

قصيدة
مهلاً يا طالب الدنيا

لأبي العتاهية

إسماعيلَ بن القاسم العنزيّ

المتوفى سنة ٢١١هـ

يَا طالبَ الدُّنيا يُثَقِّلُ نفْسَهُ
إنَّ المُخِفَّ غَدًا لأحْسَنُ حالا

إنَّا لفي دارٍ نرَى الإكثارَ لا
يَبْقَى لصاحِبِه، ولا الإقْلالا

أأُخيّ ! إنَّ المالَ إنْ قَدَّمْتَهُ
لكَ لَيسَ إنْ خلَّفْتَهُ لك مالا

أأُخيّ ! كُلٌّ لا مَحَالَةَ زائلٌ
فَلِمَنْ نراكَ تُثَمِّرُ الأمْوالا

أأُخيّ! شأنكَ بالكَفافِ وَخلِّ مَنْ
أثْرَى ونافَس في الحُطامِ وَغالَى
كم من مُلوكٍ زال عنهُمْ مُلْكُهمْ
فكأنَّ ذاك المُلْكَ كانَ خَيَالا
حتى متى تُمسي وتُصبحُ لاعِبًا
تبغي البَقَاء وتَأمُلُ الآمَالا
ولَقَدْ رَأيْتَ الحادِثَات مُلحَّةً
تنفي المُنى وتُقَرِّبُ الآجالا
ولَقَدْ رَأيْتَ مَساكِنًا مَسلُوبَةً
سكَّانُها ومَصانِعًا وظِلالا
ولَقَدْ رَأيْتَ مُسَلْطَنَاً ومُمَلَّكًا
ومُفَوَّهًا قدْ قيل: قالَ، وقالا
ولَقَدْ رأيتَ مَنِ استطالَ بجمعه[1]
وبَنَى فشيَّدَ قَصْرَهُ وأطَالا

(١) في الأصل (من استطاع بجمعة).

وَلَقَدْ رَأَيْت الدَّهرَ كيفَ يُبيدُهُمْ
شيبًا، وكيف يُبيدُهم أطْفالا
وَلَقَدْ رَأيْتَ المَوْتَ يُسرِعُ فيهم
حَقًّا يَمينًا مَرَّةً وشِمالا
فَسَلِ الحَوادثَ - لا أبا لَكَ - عنهُم
وَسَلِ القُبُورَ وأحفهنَّ سُؤالا
فَلتُخبِرنَّكَ أنَّهُمْ خلقوا لما
خلقوا له، فمضوا له أرسالا
وَلَقَلّ ما تصْفو الحَياةُ لأهْلِهَا
حتى تُبَدَّل عَنْهُمُ أبْدالا
وَلَقَلَّ ما دَامَ السّرُورُ لمعْشَرٍ
وَلطَالما صالَ الزّمانُ وَغَالا
وَلَقَلَّ ما ترْضى خِصالاً منْ أخٍ
آخيْتَهُ إلاَّ سَخِطْتَ خِصَالا

وَلَقَلَّ ما تسخو بخيرٍ نفسُهُ
حتى يُقاتلَهَا عليه قِتالا
فإذا أردتَ الناسَ أن يتحمَّلُوا
للعارِ أنتَ فَكُنْ لها حمَّالا
أأخيّ إنَّ المرءَ حَيْثُ فِعالُهُ
فانظر لأحسن ما يكُونُ فِعالا
أقْصِرْ خُطَاكَ عن المطامعِ عِفَّةً
عَنْها فإنَّ لها صَفًا زلاَّلا
والمالُ أوْلَى باكْتِسابكَ مُنْفَقًا
أو مُمْسَكًا إنْ كانَ ذَاكَ حَلالا
وإذا الحُتُوفُ تواتَرت فاصْبِرْ لَهَا
أبَداً وإنْ كانتْ عَلَيك ثِقَالا
فَكَفَى بِمُلْتَمِسِ التّواضُعِ رفْعَةً
وَكَفَى بمُلْتَمِس العُلُوِّ سَفَالا

أأخيَّ مَنْ عشق الرئاسَةَ خِفْتُ أنْ
يَطْغَى ويُحْدِثَ بِدْعَةً وَضَلالا
أأخيَّ إنَّ أمَامَنَا كُرَبًا لها
شَعْبٌ وإنَّ أمامَنا أهْوَالا
أأخيّ إنّ الدَّارَ مُدْبِرَةٌ وإنْ
كُنَّا نَرَى إدْبَارَها إقْبَالا
أأخيَّ لا تجعلْ عليكَ لطَالب
يَتَتَبَّعُ العَثَرات مِنْكَ مَقَالا
فالمَرْءُ مَطْلُوبٌ بِمُهْجَة نَفْسه
طَلَبًا يُصَرِّفُ حَالَهُ أحْوَالا
والمَرْءُ لا يَرْضَى بشُغْلٍ واحد
حتى يُوَلِّد شُغْلُهُ أشْغَالا
ولَرُبَّ ذِى لغوٍ لَهُنَّ حَلاوَةً
سَيَعُدْنَ - يومًا ما - عليه وبالا

وأرَى التَّـواصُلَ في الحَـيـاة فـلا تَدَعْ
لأخِـيكَ جَهْـدَك مـا حَـيِيتَ وِصَـالا

أأخيَّ إنَّ الخَـلْقَ فـي طَبَـقَـاته
يُمْـسي ويُصْـبِحُ للإلَـهِ عِـيَـالا

والله أكْـرَمُ مَنْ رَجَـوْتَ نَـوَالَهُ
والـلـه أعْـظَـمُ مَـنْ يُـنِـيـلُ نَـوَالا

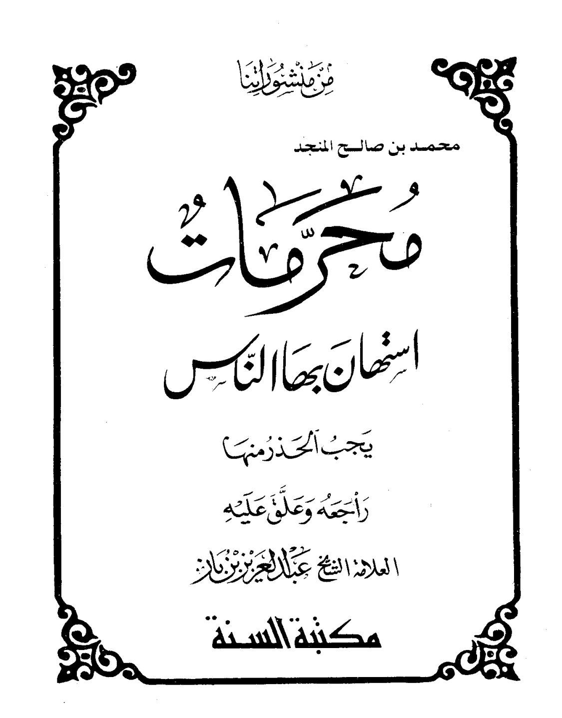
مَلِـكٌ تواضَـعَـتِ المُلُوكُ لِـعِـزِّه
وَجَـلالِه سُـبْـحَـانهُ وَتَـعَـالى

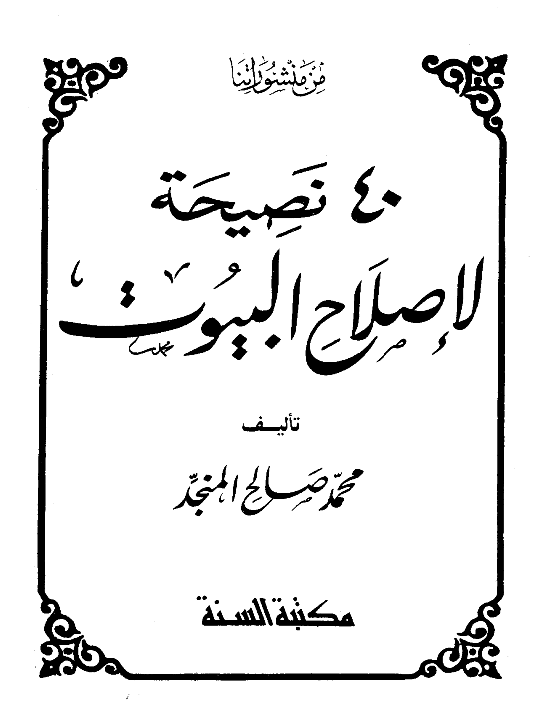
لا شيءَ مِـنْهُ أدَقُّ لُـطفٍ إحَـاطَةً
بالـعَـالـمين ولا أجَلُّ جَـلالا

❁ ❁ ❁

محتويات الرسالة

❁ ❁ ❁


من منشوراتنا
محمد بن صالح المنجد
محرمات
استهان بها الناس
يجب الحذر منها
راجعه وعلق عليه
العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز
مكتبة السنة



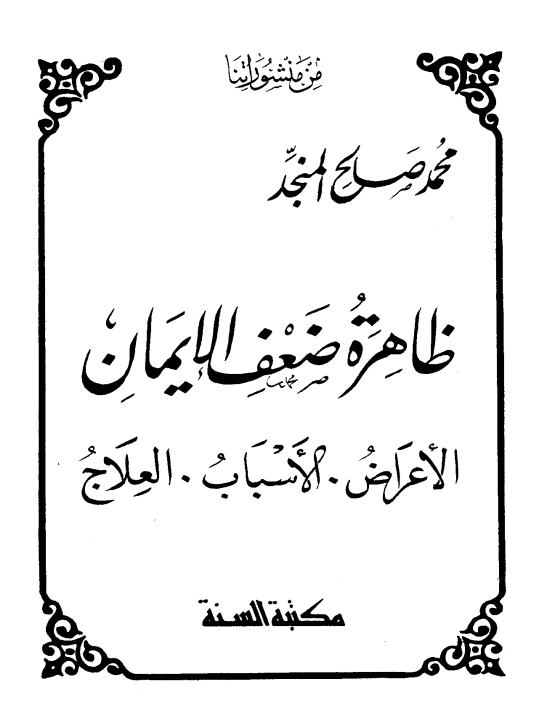
من منشوراتنا

٤٠ نصيحة لإصلاح البيوت

تأليف

محمد صالح المنجد

مكتبة السنة



من منشوراتنا

محمد صالح المنجد

ظاهرة ضعف الإيمان

الأعراض . الأسباب . العلاج

مكتبة السنة